

# الحقيقة من خدك مبدأ الذاتية

بقلم الجسدي خليفة

(٢)

## المبدأ (\*) ، اشكالاته ، محاولة حلها

« تاريخية لا ذاتية »

يقول الفيلسوف الكبير المعاصر « راسل » بأسلوبه الطريف وتحليله العميق مبدئياً وجهة نظره في حقيقة الذاتية :

« فعقيدتي هي ان الرجل على حقيقته مهما اقسام رجال البوليس بانه شاهد رجلا واحدا بذاته - ان هو الا سلسلة من رجال ، كل منهم دام لحظة وكل منهم يختلف عن الآخر ، لكنهم جميعا مرتبطون في وحدة لا عن طريق الذاتية العددية بل عن طريق الاستمرار وطائفة معينة من قوانين السببية التي تدخل في طبيعة الموقف » (١) .  
والواقع ان العلم الحديث في طبيعة الذرة ليسوئيد نظرية الفيلسوف في تحليل الشيء الى سلسلة من حوادث ، فليس هناك كتلة من المادة الا وهي عبارة عن قوى مترابطة او قل هي مجموعة من النشاط المثبت المتواصل الذي يعطي بتكاتفه المظهر العادي الحسي للاشياء ، ويثبت ذلك معادلة انشتاين الشهيرة في تحويل المادة الى طاقة والطاقة ايضا الى مادة .

تبلغ ٣٠ بليون سنتيمتر في الثانية ) ، وهكذا تكون معادلة انشتاين كما يلي : الطاقة = مربع سرعة الضوء x الكتلة .  
ط = س ٢ x ك ( حيث ط هي الطاقة ) (٢) .

غير ان ما يهمنا من كل ذلك في مثل هذا الموضوع انما هو ان الشيء اذا امعنا في تحليله وطبقنا عليه نظريات « العالم المجهرى » لما وجدنا - كما سبق ان بينت في الجزء الاول من هذه الدراسة - سوى مجموعة من الحالات التي نشأت خلال عمره الطويل او القصير ، ومعنى ذلك ان الذاتية هنا تكون منعقدة تماما فلم يظل أي فرد ، مما يفترض انه يكونها ، باقيا ، بل هو يمضي ليحل محله فرد اخر من افراد التاريخ او حلقاته .

وهذا يؤدي بنا طبعاً الى اشكال او اعتراض على الذاتية من حيث وجودها اصلاً ، وهو عندي غير ممكن الدفع ما دمنا نحكم وجهة النظر التفصيلية او الذرية . غير اني ارى انه لا داعي هنا لتحكيم هذه النظرة اذ ان ذلك يكون عبارة عن خلط للمجال الذري او المجهرى بالمجال العادي المحسوس ، فاذا ما تركنا لكل « اختصاصه » زال الاشكال ولم يعد من اساس للاعتراض .

### شرطية مبدأ الذاتية

تقدم ان المبدأ هو عبارة عن تقرير لبقاء حقيقة الشيء ما دام في عالمه ، ونظرة سريعة هنا تكفي لتدل على ان بقاء الحقيقة لا يعني بقاء الشيء الذي كان موضوعاً لها ، على حالته ثابتاً لا يتغير ، بل ان هذا الشيء في تغير دائم ، هو يتعرض للتغير حتى في جوهره نفسه ، وذلك كما اذا حرق الحيوان فانه يتحول كما هو يديه الى الجماد ، وكذا تتحول العناصر الى بعضها بعضاً كما هو الحال في ذرة اليورانيوم (٣) اذ ينتهي بها انشطارها الى ذرة الرصاص . هذا الاشكال قد يقوم فعلاً في ذهن المرء عندما يقع في نفس « الوقعة » الانفة الشبه اعني الخلط بين ميدان وآخر . ذلك بان مسألة عدم بقاء الشيء في الخارج لا تهم المنطق الصوري وانما هي من مطالب العلماء الفيزيائيين ، اما المنطقي فتكفيه الصيغة الشرطية وحدها ولا يهمله الصدق الخارجي او عدمه ، انما يهمله الصدق الشرطي ، أي الارتباط الذي يحصل بين المقدم والتالي على حد التعبير الكلاسيكي القديم . . . ، اما اذا لم تقتنع بهذه

أما تحويل المادة الى طاقة فهو اكثر وضوحاً واقل غرابة في حياتنا العادية - حياة الشارع - حيث نجد مثلاً ان كمية من البارود تتحول بعد تفجيرها الى طاقة دافعة لما يعترض المخرج من الوعاء الذي توضع فيه . . .  
لكن تحول الطاقة الى مادة هو الآخر حقيقة ثابتة فقد ثبت ان الجسم تزداد كتلته بازدياد طاقته او سرعة حركته ، وان القضيبي المعدني المحمي هو اكثر وزناً منه بارداً ، غير ان الفرق هو من شدة الضالة بحيث لا تتمكن اجهزتنا العادية بل ولا حتى اكثر الاجهزة العلمية حساسية من قياسه - الا بأسلوب من المراوغة والمخاتلة والطرق غير المباشرة .

غير ان ذلك على تعلاته لا ينفي ، بل يثبت كما سبق ، حقيقة التعادل من المادة والطاقة ، « ولقد برهن انشتاين بان العدد الثابت الذي يستعمل لتحويل الكتلة المقاسة بالغرامات الى طاقة مقاسة بارغز » - وحدة الطاقة - هو مربع سرعة النور مقاسة بالسنتيمترات في الثانية الواحدة ( يشار الى سرعة النور عادة بالحرف « س » ) وهي

(٢) الذرة - تأليف ساليينغ هاكت - ترجمة اسعد نجار ، صفحة

١٣٥ تطور علم الطبيعة لاينشتاين .

(٣) لعل من الطريف ان يذكر بهذه المناسبة انه أصبح من الممكن تحويل بعض العناصر الى الذهب حيث ظل يحلم بذلك قدماء الكيماويين . لقد اصبحت معادلة التحويل اليه معروفة غير ان تحقيقها يتطلب نفقة جهدية ومالية باهظة . انظر كتاب الذرة في خدمة السلام . من سلسلة « الالف كتاب » .

(\*) راجع العديدين الماضيين من « الاداب » .

(١) برتراند راسل . تأليف الدكتور ز. ن. محمود - صفحة ١٦٧ (نصوص) ، وفيما يقرب من ذلك يقول لينينز - ان ما يكون وحدة ذاتية شجرة مثلاً انما هو الاجزائها من نظام موحد داخل جسم واحد يساهم في حياة مشتركة ، الامر الذي يسمح له بالدوام طيلة بقاء الشجرة ، مهما تغيرت اجزاؤها ( صفحة ١٣ من المرجع الفرنسي رقم ٥ ) .

الصيغة الشرطية فان قولنا ان الشيء حقيقة ثابتة ما دام في عالمه ليساوي قولنا بانها ليس للشيء حقيقة ثابتة بسبب من انه لا يستقر على حالة واحدة ( كما هو الشأن في موضوع الفقرة السابقة أي الفرد الجزئي المأخوذ بالمعنى التفصيلي الدقيق ) بل ولا يتحتم ان يستقر في عالم واحد كما هو شأن تحول الحيوان الى الجماد . . .

وهذا ينتهي بنا - ان نحن لم نقتنع بشرطية القانون - الى نتيجة متطرفة في تعميم « التغييرية » بحيث يصبح الثابت نفسه امرا نسبيا ولا يمكن ان يكون مطلقا في الواقع ابدا ، وانما هو مطلق في الصورة التسي لا تتحقق الا في الذهن أي في الشرطية البحث : اذا كان ك كان ق . وبديهي ان معنى كل صيغة شرطية من هذا القبيل هو انه اذا لم يكن ك لم يكن ق . فالمسألة متارجحة بين « ان يكون » وبين « الا يكون » والفصل انما هو التحقق الفعلي الخارجي في الجزئيات . والجزئيات تغيرية فاتتهنا بالتالي الى نسبة الثبات نفسه في اي قضية او شيء حتى ولو كان المبدأ الذاتي نفسه .

غير انه يجب ان يعاد القول بان مرد هذا الاشكال انما هو الى الخلط بين عالمين : المادة والصورة - كما نجم اشكال الفقرة الانفة عن الخلط بين العالم الحسي والمجهرى - وهذا يوضح لنا بكيفية اجلى طبيعة التشابه بين المبدأ والجانب الثابت من الواقع فهذا الثبات هو الاخر في الصورة ، في العالم العامة التي تعطي حدود الشيء الظاهرية مما لا ينافي واقعها - المجهرى - القابل بان اجزاء الشيء في حركة مستمرة وتغير دائم ، وبعبارة ملخصة : فكما ان الثباتية المطلقة لمبدأ الذاتية لا تتم الا في المعنى التجريدي الشرطي الصوري - فكذلك لا يصدق وصف العالم الخارجي ولا جزء منه - الجزء المقال عليه ثابت - الا بالمعنى الشكلي أي من حيث الظاهر والغالب الحسي العام ، وليس من حيث الباطن والمضمون . وفي هذا ونحوه تلتقي الفقرتان الراهنة والتي قبلها .

### معادلة بلا تعادل

واذا كان قد امكن حسبما تقدم التغلب على الصعوبتين الانفييتين ، فان هناك مشكلة اخرى تتعلق بصياغة معادلة المبدأ نفسه من حيث انها تتجاوز وعدم دقة يؤديان بها الى الابتعاد عن معنى المعادلة كساو تام بين الطرفين .

ذلك بان قولنا : (أ هي أ) لا يخلو من احدى اثنتين : اما ان تكون (أ) هي عين (أ) بدون ادنى اختلاف بينهما ، وفي هذه الحالة تصبح الصيغة المركبة مساوية للصيغة البسيطة ، اي ان (أ هي أ) تصبح تساوي : (أ) فقط اعني ان التساوي بين (أ) و (أ) المفترض جدليا تطابقهما الكلي ، يصبح مساويا لقولنا : (أ) فقط ، وهذا كلام ناقص وغير مقيد يرفضه المنطقي ويرفضه النحوي كما يرفضه عامة الناس سواء بسواء ، فهو كلام « لا يحسن السكوت عليه » عند النحوي ، وموضوع ينتظر محمولا عند المنطقي ، وأي معنى يدل على النقص عند الجميع .

قلنا ان معادلة من هذا القبيل مساوية (أ) بمفردها لان (أ) الثانية ما دام الغرض يقوم - جدليا - على تطابقها الكلي فانها لا تكون « محمولا » لان المحمول حكم ، والحكم لا بد فيه من اخبار بمعنى جديد مغاير « للموضوع » فهذا شرط صحة وجوده وتصور ذاته .

« واذ ان الامر مخالف لذلك صح الاعتراض بنقص صيغة قانون الذاتية وغيبها . وبعبارة اخرى فالمفروض في المعادلة بحكم تعريفها ان تشمل على التساوي بين طرفين اما هذه فليس فيها سوى طرف واحد ولذلك فوصفها « بالمعادلة » تجوز والحكم عليها بالتعادل خطأ .

الحالة الثانية للمعادلة المزعومة ، هي ان يكون بين أ وأ ( الموضوع والمحمول ) اختلاف ما ، وهنا يصبح الحمل صحيحا والكلام مستقيما مفيدا اذ فيه اخبار بجديد ، ولكن اذا امكنا بهذا تحقيق مزية الكلام العادي فانه يؤدي بنا الى اضاعه ، مطلوب الدعوة التي جاء القانون يدعيها ، وبعبارة ادق ، تصبح صيغة المعادلة هنا لا تدل على سوى المبينة . ولا نزيل هنا اكثر فيكفي التذكير بان المناطقة قد شعروا فعلا بهذه الصعوبة فراحوا - كما اسلفت في عرض المبدأ - يعلنون بان هذا التغاير هو شرط المبدأ نفسه وانه لا ينفي التغاير ابدا ولا يقوم بدون الاعتراف به . وليس هذا في الواقع بشيء اكثر من الاعتراف بان المعادلة (أ = أ) ليس فيها تعادل ، كما ان هذا يؤدي بنا مهما تمحل المتمحلون الى اثبات ان الصيغة الصادقة التي يجب ان تفهم بها الصيغة المفقودة انما هي ان أتأكد تساوي أ . أو ما يفيد هذا المعنى . لا اكثر .

### مرجع الزامية مبدأ الذاتية

بعد ان حاولت اعطاء مفهوم اقل سداجة عن قانون الذاتية ، وجددتني تجاه مسألة الزاميتها ، هل مصدرها التجربة ام غيرها ؟

كان القدماء يرون في هذه المبادئ قوة مفارقة هي التي يرجع اليها الالتزام ، فالمرء يولد وهو مزود بالقوة على ذلك وما يشبه هذا القول الذي درج قدام العقلين على ترديده .

والواقع ان دراسات الانترولوجية وكل البحوث الوصفية للانسان من علم اجتماع وعلم نفس قد حولت المناقشة في رأي القدماء هذا الى مجرد مضيعة للوقت لا طائل تحتها . فلقد اثبتت هذه العلوم متضافرة مع علوم اخرى انه لا مرجع غير التجربة ، وانه لا « عقل فعال » « ولا فيض » بالمسؤول عن افكار الذهن وقوالب العقل ، انها التجربة وحدها ولا شيء غير التجربة .

ذلك بان التجربة هي التي تعطي الانسان المشرقي من المبادئ والافكار ما تحرم منه البدائي (٤) . لاحظ الانسان الواقع فانتزع منه صفات تجريدية بعد طول الملاحظة والتأمل المنقولين عبر الاجيال في الاثار المسلسلة من وراثية وحضارية . عاش مع اخيه ثم الفاه لا يبدي حراكا فأخذ يستنتج ان الكائن مثله لا يخلو اما ان يكون حيا واما ان يكون ميتا . وانه لا يوجد - استبعادا لحالة المرض وشبهها - من هو نصف ميت اولا هو بالميت ولا بالحى . .

كما لاحظ انه مهما تغيرت عليه الاحوال وانتقل من مكان الى اخر فانه لا يزال هو هو . وكذلك الشأن فيما حو اليه اذا نظر اليه نظرة اجمالية عامة . الشمس التي طلعت اليوم لا تخالف الشمس التي طلعت امس وما قبله من سائر الايام الماضية ، وهكذا يقول فيما

(٤) المنطق الصوري صفحة ٥٩ - وانظر ما يقابل ذلك عند الحديث عن قول دوركايم : « بان مقولات العقل الاساسية كلها هي نتاج المجتمع » في صفحات ٤٦ الى ٤٨ .

يمثلها مما هو بالثبات اشبه .

لكن أولا يعترض انصار العقليين - العقليين خصوصا - قائلين كيف . . . يتم الانتفاع بالملاحظة وتحويلها الى فكر ان لم يكن ذلك على اساس من وجود قبلي *a priori* لهذه المبادئ اولا وبالذات ؟ اي ان هذه المبادئ سابقة على التجربة وهي التي تنظمها وتضوغيها، والا فهل من باب الصدفة ان كانت الوقائع *Facts* تماشي المبدأ؟! غير انه اذا كان مبررا ان يخطر على البال مثل هذا التساؤل فانه لا يلبث بعد ذلك ان يتكشف على ما يشبه المغالطة ، ذلك بان الامر ان بدنا كذلك - اي ان بدأنا القاسون سابق على التجربة ، فانما يعود الى أننا قد اكتسبنا بعد ، هذه المبادئ - والأفكار واصبحنا - ان صح التعبير - مدمنين عليها فلم نعد نتصور امكانية حدوث الاشياء ، ومواضيع الملاحظة خلافا ، كما لم يعد في امكان مدمن المخدر ان يتصور هناءة العيش محروما مما يتعاطاه منه .

لكن هل الامر سهل الى هذا الحد وان الاعتراض من الضعف بحيث يجهز عليه بدون مقاومة ؟ ذلك بان هذا الرد الذي حاولنا به نقض الاعتراض ليبدو وكأنه ينطوي على مسلمة اولية . والا فمن اعلمنا بصحته - الاعتراض - ما دام التجرد عن النظر من خلال تلك المبادئ قد اصبح بعد مستحيلا . لما كنا قد ادمننا التعود عليها .

غير ان التقدم في ذلك اكثر ليهددني بالضلال في مجاهل الميتافيزيكا فلنقتنع اذن كما فعل صاحب الشاعر القديم ، من الغنيمة بالاياب . ( ٥ )

### مرجع استمرارية مبدأ الذاتية

سبق ان تحدثت في هذه الدراسة اكثر من مرة عن الادلة التي تثبت ان الحس هو الطريق الاول والاخير للمعرفة اي انه هو الاصل فيها مهما تشعبت وابتعدت عنه .

وهذا يدخل بنا ، ونحن بصدد مبدأ الذاتية ، في اشكال لا سبيل الى نكرانه ، ذلك بان الحس لا ينقل الي فيما ينقل ان الشمس التي اشاهدها كل يوم ومكتبي الذي اشتغل عليه كل مساء . . . لا ينقل الي الحس ان لهذه الاشياء والاشخاص « ذاتية » بل هو ينقل الي انطباعات فقط وتكرارات للاحاساس الاول ، لا اكثر ، فمن أين اذن جاءت هذه الاستمرارية التي نفترضها لمبدأ الذاتية ؟

الواقع ان الاستمرار ان هو الا « دفعات » من الانطباعات تتوالى على الحس حين الاحساس ، وتتوالى على الفكر حين التفكير فيها ، ومعنى ذلك انه لولا السرعة التي تتم بها « اللقطات » للشئ مبعث الاحساس لامكننا تعيين هذه الدفعات وتقدير « وحداتها » مفصولة عن بعضها في الزمان مستقلة كل منها عن الاخرى .

وتشبه مسألة الوصل بين الوحدات هذه ، تلك الدائرة التي توجد « بدمن الملاهي » والتي يوضع على محيطها عدة مصاييح غير متراسة ، فبادارتها بسرعة تبدو حلقة كاملة من النور . وما ذلك كما هو بديهي الا تلاشي المسافات بفعل السرعة ، تلاشي المسافات بين

( ٥ ) بالنسبة الى المنهج الفينولوجي الذي يمثل هوسرل *Husserl*

لا اشكال في ذلك لانه لا وعي عنده الا بالنسبة الى الموضوع فهناك انتقال دائري بين التأمل والواقع . يقوم على اساس حقيقة ( الوجود في العالم ) . انظر مشكلة الحرية للدكتور ز. ابراهيم صفحة ١٧٤ .

المصاييح وبدوها كما لو كانت مصابحا واحدا دائريا . وهذا يوصلنا الى القول بنتيجة واضحة ومستقيمة وهي ان مرجع سر الاستمرار في مبدأ الذاتية انما يعود الى خداع الحس او الخيال وليس الى شئ اكثر من ذلك! اما الاستدلال على ان الحس لا يقدم لنا الاستمرارية وانما انطباعات فقط وان العقل ليس هو الاخر المسؤول عن الاستمرارية ، فلم اجد في تعليل ذلك احسن مما كتبه الدكتور زكي نجيب محمود عن أبي نظرية حسية المعرفة والمنهج الوضعي الفيلسوف ( هيوم ) .

قال الدكتور . . « ليست هي الحواس - التي تحملنا على الاعتقاد بان الشئ الذي نحس انطباعه عليها يوصف وجوده بالاستمرار كما يتصف باستقلاله عنها ، لانه اذا كانت الحواس هي نفسها الدالة على ان الصورة التي تقدمها الينا انما هو صورة لاصل خارج عنها لوجب ان تقدم لنا الاصل . وصورته معا ، غير انها بداهنة لا تفعل .

كلا ولا هو « العقل » الذي يحملنا على الاعتقاد بان الانطباع الحسي الذي يطبع حاسة من حواسنا ان هو الا صورة للوصول خارج عنا لانه لو كان العقل هو وسيلة ذلك الاعتقاد للزم ان تكون النتيجة مستمدة من المقدمة ، لكن الانطباع الحسي باعتباره هو المقدمة التي تستدل منها لا يحمل في طيه ابدا ما يلزمنا باستنتاج نتيجة تقول ان وراء هذا الانطباع اصلا مستقلا خارجا عنها . « ليس هو العقل اذن الذي يحملنا على الاعتقاد واكنه « الخيال » ، ذلك ان الانسان اذا ما تعود انطباعا معينيا ياتيه كلما وجه حاسته وجهة معينة ، كان اسر عليه ان يفترض ان هذه الانطباعات المتشابهة التي تعاود من ذلك المصدر المعين انما ترتبط كلها برباط الهوية ، اي انه يفترض انها في الحقيقة ليست سلسلة انطباعات كل انطباع منها قائم بذاته مستقل عن سوابقه وأواقه ( كما هي الحال في حقيقة الامر ) بل هو انطباع واحد بذاته يتاثر به كلما وجه حاسته الى ذلك المصدر ( ٦ )

ويمكن ان يقال اذا اردنا النظر من زاوية ثانية بان قانون الذاتية ليس سوى اعادة انبعاث الصور المختزنة عند الاحساس بالشئ انبعاثا متواكبا مع الاحساس الراهن ان كان او مع مجرد بعضها بعضا فقط

( ٦ ) ديفد هيوم - تأليف الدكتور ز. ن. محمود صفحة من ٥٦-٥٨

## فندق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بإدارة : حلمي المباشر

## مراجع البحث

### (أ) المراجع الفرنسية :

- (1) La grande encyclopédie.
- (2) Larousse du XXe Siècle.
- (3) Vocabulaire Philosophique, Lalande.
- (4) Nouveaux essais sur l'entendement, Hurmain (L. IV, 1) Leibniz.
- (5) Mondologie, Leibniz avec notion et analyse (Par P. Lemaire).
- (6) Oeuvres Philosophiques de Leibniz, Paris, Librairie Hatier Avec introduction et notes Par M. Paul Janet, Paris, 1866.
- (7) Eléments Philosophiques, René Larraumets impr. L. maurkides, Galata, (Istanbul).

### (ب) المراجع العربية :

- ( ٨ ) المنطق الوضعي تأليف الدكتور زكي نجيب محمود الطبعة ٢ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٦
- ( ٩ ) ديفد هيوم تأليف الدكتور زكي نجيب محمود ط ١ دار المعارف مصر
- ( ١٠ ) برانزاند رسل تأليف الدكتور زكي نجيب محمود ط ١ مطبعة دار المعارف مصر
- ( ١١ ) قصة الفلسفة الحديثة ( بمشاركة احمد امين ) الجزء الاول لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩
- ( ١٢ ) تاريخ الفلسفة العربية تأليف برتراند راسل وترجمة الدكتور زكي نجيب محمود الكتاب الاول لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٧
- ( ١٣ ) المدرك الحسي مقال للدكتور زكي نجيب محمود - مجلة علم النفس ( المجلده العدد ٢ أكتوبر ٤٩ - يناير ١٩٥٠ )
- ( ١٤ ) المنطق الصوري تأليف الدكتور علي النشار . ط ١ المكتبة التجارية الكبرى ١٩٥٥
- ( ١٥ ) علم المنطق الحديث تأليف محمود حسنين عبد الرازق ط ١ دار الكتب المصرية ١٩٢٦
- ( ١٦ ) المنطق التوجيهي تأليف ابو العلا عفيفي لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٤
- ( ١٧ ) علم النفس تأليف جميل صليبا ط ٢ مطبعة دمشق ١٩٤٨
- ( ١٨ ) مبادئ علم النفس العام تأليف الدكتور يوسف مراد ط ٣ دار المعارف بمصر ١٩٥٧
- ( ١٩ ) مشكلة الحرية تأليف الدكتور زكريا ابراهيم ط ١ مكتبة مصر
- ( ٢٠ ) عقائد المفكرين في القرن العشرين ، تأليف عباس محمود العقاد مكتبة الانجلو المصرية
- ( ٢١ ) حياة الحقائق تأليف فوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر دار احياء الكتب العربية ( مصر )
- ( ٢٢ ) فجر الفلسفة اليونانية ، تأليف الدكتور احمد فؤاد الاهواني ط ١ دار احياء الكتب ١٩٥٤
- ( ٢٣ ) الفترة ، تأليف سلينغ هاكت ، ترجمة اسعد النجار ط ١ دار الثقافة ببيروت
- ( ٢٤ ) تطور علم الطبيعة تأليف البرت ايشناتين وليوبون انقلسد ترجمة الدكتور محمد المقصود المنادي والدكتور عطية عبد السلام عاشور ط ١ مكتبة الانجلو المصرية
- ( ٢٥ ) « ويل من السماء » مقال عن الذرة لصاحب البحث منشور بمجلة « الفكر » التونسية يناير ١٩٦٠

الجنيدي خليفة

القاهرة

في حالة التذكر او التفكير ( في الذاتية ) .  
وقريب من هذا ما يقوله المفكر الفرنسي روسين Ruysen  
في كتابه التطور النفسي للحكم  
Evolution Psychologique du jugement

وقد سبق ان نقلت غالب الفقرة ولا بأس من اعادةتها  
متكاملة ... ( ٧ )

« ليس مبدأ الهوية سوى تعبير صوري من قانون العادة او التكرار فالقول بان أ هي أ يدل على اننا اذا لقينا شيئاً من الاشياء للمرة الثانية من غير ان يكون قد تبدل تبدلاً محسوساً ، اعاد الفكر بالنسبة اليه نفس انماط الانبياح وعين ردود الفعل التي استعملها في المرة الاولى (٨) والخلاصة ان مرجع الاستمرارية في الذاتية انما هو الخيال ان نظرت الى المسألة من الجانب الفكري ، وهو العادة ان نظرت اليها من الجانب السلوكي النزوعي .

### خاتمة

كانت هذه الاشكالات ومحاولاتي في حلها اهم ما ظننته يرر قيامي بالبحث . ولا بد عندي ان يسأل الكاتب نفسه قبل البدء في خط اية كلمة عن الدواعي التي تدعوه الى القيام بالبحث .

ومن العوامل التي دفعتني الى القيام بهذه الدراسة المتواضعة اهمية المبدأ الذاتي نفسه سواء لما يتمتع به من شهرة طيلة العصور الفاصلة بين ارسطو ووقتنا الحاضر او لقيمته الحقيقية كفكرة هي اهم الافكار واقربها الى القانون في عالم العقل او النفس الذي طالما استعصى عن التقنين . وذلك رغم المطاعن التي توجه الى القانون ورغم ما يتصم به من هنات .

وهذا يسوقنا الى التذكير « بحقيقة الحقيقة » كما تبينت لنا خلال البحث ، فهي لا تتمتع بالاطلاق ولكنها متغيرة ولا سيما في مقومها الثاني - بعد المبدأ - اعني الاحكام والفروض ، واقل ما يقال في هذا ان تصوراتنا عن الحقيقة يجب ان تصبح على ما تقدم انفا اكثر تواضعاً . فليست مقدسة ولا مطلقة ، وانما هي - حتى في ثبوتها - تعود الى الخيال او العادة على ما حاولت بيانه .

وتصور\* للحقيقة من هذا القبيل ليس هو في الواقع بالخيم على العلم بل هو بالعكس ادعى من التصور الثبوتي ، الى تنشيط العلم وتطوره وحث خطاه ، ذلك بان العلم ان آمن بان الحقيقة لا تكاد تثبت وانها فرض من الفروض اقتنع بضرورة مواصلة الاكتشاف والتعديل في سبيل الوصول الى حقيقة « احسن » قبل ان ياتي ما هو احسن من هذه بدورها ، وهكذا دواليك . واكثر ، فان هذه « الحركية » في الحقيقة لا تقتصر على العلم بمعناه الضيق بل - وربما من باب اولي على سائر منطلقات الفكر الانساني حيث يجب ان يسرى الاقتداء بالحركية في كل شيء ، فتظل الانسانية ، من ثم في نشاط دائم وفتاء لا ينقضي .

(٧) كتاب علم النفس لجميل صليبا صفحة ٥٨٨ .

(٨) قارن ذلك بما جاء في قصة الفلسفة الحديثة للدكتور ز. ن. محمود ( مع احمد امين ) مستعرضاً وجهة ( د. هيوم ) والموضوع نفسه: « يعتقد الانسان ان الاشياء الخارجية تتمتع بوجود متصل دائم وهي عقيدة باطلة ، وهم نسجه الخيال ، ويرجع هذا الوهم الخاطيء الى العادة ايضاً التي اوهمتنا بوجود علامات صورية بين الاشياء » . ج ١ صفحة ٢٤٠ .